4

«الغناء و الرقص بأن الأمومة حلوة»

في الحادي عشر من شهر أيلول (سبتمبر) 2001، الساعة الثانية من بعض الظهر بحسب التوقيت الصيفي في بريطانيا، والموافق للساعة التاسعة صباحاً بحسب التوقيت في شرق الولايات المتحدة، كنت أقرأ آخر كتاب للكاتبة «ناومي وولف» مؤلفة «أسطورة الجمال» كما يحلو لناشر كتبها أن يقدمها. يأخذ الكتاب قارئه عبر الحمل الأول بتفاصيل دقيقة، مع كل شهر من أشهر الحمل التسعة تعطي نفسها فصلاً. وكنت أحاول إنهاء الشهر الرابع حيث تجد «وولف» نفسها تتمنى أشياء لابنتها، إن كان المولود أنثى بالفعل.

تمنيت لها قلعة من العصور الوسطى بجنودها، وجدرانها المطلية باللون الأبيض وبسطحها الأحمر وبأبراجها... التي كان أخي يلعب بها عندما كنا أطفالاً، والتي كنت أتشوق للمشاركة باللعب بها. لكن جميع الشخصيات التي يلعب بها كانت من الفرسان الذكور الذين يركبون ظهور الخيل... كنت أتمنى أن تكون لابنتي قلعة مشابهة، ذات جسر متحرك، ولكنني كنت أتمنى لها... سيدات أيضاً: سيدات بدرع «جان دارك»، سيدات على ظهور الخيل وعلى أكتافهن جعبة سهام؛ نساء مصطفات على أرض المعركة، ويقلبن أوعية ضخمة مليئة بالزيت الذي يغلي على المحاصرين، نساء في الأسفل يرفعن جذع شجرة صنوبر ضخم ويضربن به الأبواب الخشبية المقفلة ذات الأقواس الأفقية؛ ونساء من رماة الأسهم وحملة الأقواس. وتمنيت لها شخصية مكتملة وصاخبة ذات صدارة يمكن ثنيها، ملكة البريطانيين، وجيش من القادة الرومان المجهزين جيداً يغيبون عن النظر؛... وتمنيت لها تماثيل صغيرة من سلالة الملكات اللواتي يضعن السم، وكل ملكة أكثر خداعاً وغشاً من سابقتها. وتمنيت لها النذالة والحقارة إضافة إلى البطولة[1].

في الوقت الذي كنت أقرأ هذا، وبمصادفة رهيبة، «جاءت الحرب إلى أمريكا»[2]. ففي موطن «ناومي وولف» في نيويورك، الخاطفون الإرهابيون ـ وربما كان وصفهم الكافي بأنهم جاؤوا من «سلالة الملوك المسممون وكل منهم مخادع أكثر من سابقه ـ قامت طائرتا ركاب بالاصطدام ببرجي مركز التجارة العالمية فقتلتا الآلاف من الناس الأبرياء. ومع أنها لم تكن حرب القرون الوسطى التي تمنت «ناومي وولف» لابنتها أن تبدأها، فقد انطلق في العالم صراع أكثر رعباً. وبينما أكتب هذا وتنهال القنابل على إقطاعية أفغانستان من القرون الوسطى، لم يكن في الأفق ما يدل على نهاية ذلك، ولم يكن بالواقع هناك أي شخص يبدو أنه يعرف أين أو كيف سينتهي كل ذلك. وبالتأكيد يمكن أن يسيطر ذلك على تربية ابنة «وولف» في الوقت الذي سيأتي.

ولكن ما أعرفه هو أن الموضوع قد أثار قضية المبالغة بتقييم عالم الرجال بطريقة أقوى مما كنت أرى عندما بدأت بكتابة هذا الكتاب. في المسودة الأولى لهذا الفصل، استخدمت كافتتاحية قصة أليفة حول طالبة كانت في «مأزق رهيب» وتأمل في أن تكون أماً بوقت كامل، ولكنها كانت تعرف أن عليها العمل من أجل شهادة الدكتوراه عوضاً عن ذلك. لماذا؟ أخبرتني بأنها كامرأة تتمتع «بأشياء خاصة بالناس»، كالعائلة والأصدقاء والمجتمع ـ ليس لها وضع خاص. فعليها أن تحقق وضعاً قوياً في المجال الأكاديمي كي «تشعر بالرضا عن نفسها». فقلت بطريقة صغيرة لقد أوضحت نواحي من مشكلة أخرى تتعلق ببرنامج المربين المؤيدين لمساواة المرأة، عن الطريقة التي يبالغ المؤيدون لمساواة المرأة بتقييم عالم الرجال على حساب الأنثى. وبطريقة درامية أكثر، إن الأحداث التي انكشفت في أفغانستان وأوضحت بشكل وصفي عالمي المشكلة ذاتها.

في جريدة التايمز اليوم مقالة «هل يجب أن تنقل أم أخبار الحرب؟»، وقد أثارت هذه المقالة اعتقال «حكومة» الطالبان لـ «إيفون ريدلي»، وهي صحفية عمرها43 سنة من شمال شرق انكلترة، وهي أم لفتاة عمرها تسع سنوات،

وتدعى «ديزي». لقد أثار بعض الأشخاص القدامى والعاطفيين احتجاجاً بأن الآلام التي عانتها «ديزي» تظهر أن الأمهات لا ينبغي أن تغامرن بحياتهن بهذه الطريقة على الخط الأول في الجبهة. لكن حركة مساواة المرأة لا تقبل بشيء من هذا. فقد رفض مراسلان كبيران من إذاعة «بي بي سي» و «الساندي تايمز» وجهة النظر بأن التجول في أفغانستان إلى أن تم أسرها لم يكن من عملها. وأوضحا أن المراسلين الذكور أيضاً لديهم أطفال ولا يقول لهم أحد بأن يتركوا عملهم ولا ينشر تفاصيل عن أولادهم الذين تركوهم وراءهم. تقول «ميراندا إنغرام» كاتبة المقال: «وهكذا تماماً. للنساء أعمال بمقدار ما للرجال في نقل الأخبار من الجبهة». وأي مركز آخر «تجاوزه الزمن بصورة مضحكة». وتريد أن تدافع بقوة عن حق أية أم بأن تتوجه إلى المناطق الخطرة إن هي أرادت ذلك».

كل شيء يستطيع الرجل فعله، تستطيع المرأة ويجب أن تفعله ـ حتى وإن كانت «إنغرام» من موقعها باتجاه النهاية، لكن أسبابها لفعل ذلك كانت مستنيرة. فهي تلاحظ أن بعض الصحفيين الذكور هم الآن «مستعدون للاعتراف بأن الأبوة تؤثر في بحياتهم المهنية»، فربما «من السخف ألا نقر بأن الأمومة تفعل الشيء ذاته». إن مؤيدي مساواة المرأة، وهم يدركون دائماً بأن ما يفعله الرجال هو دائماً الطريقة الصحيحة للعمل، يلاحظون بأن بعض الرجال يصابون بألم حيال ترك أولادهم للذهاب إلى الجبهة، ولذا، وربما على مضض، نستطيع أن نسمح للأمهات الصبايا أن يشعرن بالألم نفسه؛ ولكن فقط عندما يشعر الرجال به أولاً[3].

ولكن هل هذه هي الطريقة التي يجب أن تكون حقاً؟ وهل ما يفعله الرجال في العالم الحقيقي هو مهم لدرجة أنه يجب على النساء أن يتبعنهم حيثما يذهبون ـ حتى و إن كان ذلك يعني التخلي عن الأطفال من أجل أخطار غير مؤكدة على خط الجبهة؟ وبالتالي هل يجب أن تكون سياسة تعليم البنات هي ذاتها لتعليم الصبيان؟ أو هل هذا العالم كله بطريقة ما من الخلف إلى الأمام؟ وهل هذا العالم كما يريد مؤيدوا مساواة المرأة أن يبالغوا بتقييم ما يفعله الرجال على حساب الإناث؟

لم تفكر صحفيات الحرب بهذا الشكل بالتأكيد، وهم بصحبة قديرة. ولم يكن لديهن «ناومي وولف» التي تتمنى عجائب الحرب لابنتها التي لم تولد بعد فقط، بل كان إلى جانبهن أيضاً «سيمون دو بوفوار»، في كتاب (الجنس الآخر) ـ تعبير حماسي من الإعجاب والاحترام ـ لكل ما يفعله الرجال. فقد تفوق الرجال على مجرد الحال الحيواني؛ وانخرطت النساء وغرقت في الأمومة. تقارن «دو بوفوار» في المقطع العظيم بين الحرب والأمومة:

> إن أسوأ لعنة أصابت المرأة هي وجوب استبعادها من هذه الغزوات المماثلة للحرب. لا بسبب إعطاء الحياة ولكن بسبب المخاطرة بالحياة اتخذ الرجل مكاناً أرقى من الحيوان؛ ولهذا السبب لم يكن التفوق الإنساني من نصيب الجنس الذي يهب الحياة بل كان من نصيب الجنس الذي يقتل[4].

لكن مؤيدي المساواة بين الرجل والمرأة لا يتحدون حول هذا. وفي الجهة الثانية من النقاش، تتخذ «جيرمين غرير» شخصية فريدة ضد استعباد أخواتها. فهي لا تقتنع بأن تأييد حركة مساواة المرأة تتطلب الحق لأن تكون النساء مثل الرجال من حيث الحرب والعدوان، أو إنني أفكر في نقل أخبار الحروب والاعتداءات. عندما كتبت كتابها الشهير (الأنثى المخصية) في عام 1970، قالت «كانت النساء المتطرفات تطالب بحق العدوان كحق إنساني أساسي، وكانت مجموعات النساء تتدرب على الدفاع عن الذات و فنون الزواج». وتلاحظ إن هذا يفترض أن «على الحرية أن تشمل حق هزيمة أعدائك». لكنها ترى حينئذ النتيجة الواضحة «الحرية للجميع»: «إن كان العنف حقاً، فإن الأقوى والأشرس سيتحكم بالألطف والمحب. وهؤلاء النسوة الأكثر قوة وشراسة فقط هن من يستطعن الانضمام إلى تلك المجزرة. والباقيات هن من يتم ذبحهن». وفيما يتعلق بالحرب، فإنها تقول في كتابها الشهير (المرأة الكاملة): «كريهة كما تكون الفكرة بأن النساء الغنيات يقتلن النساء الفقيرات

لاستئجارهن، وتتطلب المساواة في المجتمع العسكري أن يتم تمثيل المرأة في العسكرية». لكن مؤيدي تحرير المرأة يناقشون هذا الاستنتاج. وكما قالها أحد أساتذة الأكاديمية البحرية في الولايات المتحدة: لم نعد نستبعد النساء، ولكن (سواء اعترفنا أم لم نعترف) فإننا لا نزال نستبعد الإناث».

لذا تسأل غرير هل يجب على النساء أن «يتعلمن أن يكن منافسات وهجوميات وفاسقات وقساة كالرجال؟ لماذا يجب أن يكون هذا مرغوباً به؟ «إن كانت النساء على مر التاريخ ملتزمات بالرعاية والعناية؛ وإذا اتهمن الآن بأنهن غير مهتمات بالرعاية والعناية، هل يمكن أن يكون هذا تحريراً؟»[5].

بهذا النقاش إذا وضع في سياق التوتر بين المساواة وتحرير المرأة، لننظر إلى هذه القضايا بصورة أقرب فيما يتعلق بالتربية والتعليم. ونعود إلى مقولات «ردم الهوة بين الجنسين».

القيمة المشكوك فيها لمتابعة العمل

يسر مؤيدي مساواة المرأة في «ردم الهوة بين الجنسين» ـ وهم ممثلون لعدد من الآراء في حلقات التربية المؤيدة لمساواة المرأة والمؤثرة في السياسة الحكومية ـ أن الفتيات، وخاصة فتيات الطبقة العاملة يتركن المجال المنزلي من البيت والموقد ويصبحن مستقلات بصورة متزايدة عن الرجال من خلال العمل. وتعتقد التربية المؤيدة لمساواة المرأة أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع الفتيات بواسطتها تحقيق مراكزهن. وفي عالم الرجل فقط ـ العمل و المجال العام ـ تستطيع النساء أن تجد الإنجاز والسعادة، كما هي ذاتها بالنسبة للشباب والرجال.

الشيء الأول الذي يمكننا قوله هو أن المربين المؤيدين لمساواة المرأة يتمتعون بوظائف مجزية في التعليم العالي. ولكن الفتيات العاملات اللواتي يسر المربين أن يروهن متحررات من الحياة المنزلية العائلية لا يرتبطن بوظائف ذات علاقة بالحياة الجامعية والأكاديمية. وأكاديميين يتعين علينا أن نذعن، إلا في أكثر

اللحظات تشاؤماً من حياتنا، بأن عملنا يمكن أن يكون مختلفاً عن الوظائف الأخرى. فنحن عادة لا نرى أنفسنا عبيداً للأجور، ولسنا بحاجة لتوقيت البدء ولا توقيت الانتهاء. ففترات العمل قصيرة وأوقات التفكير والعمل ضمن شبكات طويلة. فليس لدينا رؤساء يراقبوننا عن كثب ويضيقون الخناق علينا. لدينا شعور بالمسؤولية والأهمية أحياناً. وليس لدينا تعليمات دقيقة ومفصلة، ونستطيع أن نكون مرنين في ساعات العمل وذلك كحق، ويتعين علينا أن نسافر ونقابل أشخاصاً من أصحاب العقول المماثلة في المؤتمرات الجميلة.

ومن جهة أخرى، ليست فتيات الطبقة العاملة بالضرورة متحررات من متاعب الشؤون المنزلية لتنتمي إلى المراكز الرائعة. ولكن بعضهن يمكن أن يصبحن طبعاً: هناك انتقال طبقي؛ ولكن معظم هؤلاء الفتيات المتحررات سوف يبقين في أعمال الطبقة العاملة. وسوف تتحرر هذه الفتيات ليصبحن عاملات استقبال وسكرتيرات ومساعدات في المطاعم وعاملات في المعامل وما شابه ذلك. ولهذه الوظائف فروق كبيرة إلا أنها يمكن القول عنها جميعاً أنها لا ينقصها الأشياء المتعبة. ولكن أليس من الممكن أن يكون هذا التعب المرتبط بالأجور هو سيء أيضاً، بل أسوأ من التعب بالعمل المنزلي؟

وكما تبين شهادة فتيات الطبقة العاملة في أعوام السبعينيات بصورة واضحة تماماً، يمكن جعل الأعمال المنزلية رومانسية؛ وربما هذه الأساطير الرومانسية تحتوي على عنصر من الحقيقة. وربما تجد فتيات الطبقة العاملة أهدافهن في حب العائلة بطريقة يبدو أن النسوة المتميزات والأكاديميات لا يرغبن بتشجيعها، كما ناقشنا في الفصل السابق من هذا الكتاب. ربما يتمكن الحب حقاً من جعل عالمهن يجري وبذلك يخفف من أعباء متاعب الشؤون المنزلية. ولكن مهما كانت الصعاب، فمن الصعب أن ترى كيف تستطيع المرأة جعل سرورها رومانسياً بعملها كعاملة محطة بنزين أو عاملة مركز هاتف بالطريقة ذاتها.

ولكن لا يثار هذا الشك حول فتيات الطبقة العاملة فقط. وهل الوظائف المهنية ـ عندما تسلط الأضواء عليها، وربما تشمل ما هو أكاديمي ـ جيدة حقاً بقدر ما يفهمها المؤيدون لمساواة المرأة؟ أم هل هي مرتبطة الآن برمز ذكوري مساو، فتشكل كل ما فعله الرجال قبل أن تصبح حركة تحرير النساء كان جيداً، وأن كل ما فعلته النساء كان سيئاً؟

في عام 1981، كان لدى «بيتي فريدان» شكوك مماثلة أيضاً. فأعادت رواية قصص عن نساء أصبحن يائسات عندما أدركن أنه حتى الوظائف العالية جداً، التي ظنن أنها رائعة تبين لهن أنها لا تبعد عن المتاعب المنزلية كثيراً. وها هي المرأة صاحبة الوظيفة المصرفية العالية جداً تقول مشفقة: «لا أشعر بأنني مذنبة. وأشعر بأني آسفة فقط لأنني لم أشاهد الكثير من الأطفال. ليست الوظيفة هي النهاية... كان الحصول على الوظيفة مثيراً. والجزء القاسي هو القول عند الاكتشاف بأنها مجرد وظيفة، أنك لا تحبين ما تقومين به»[6].

ليست هذه الهموم بالواقع جديدة. فقد كانت «مرغريت ميد»، الاختصاصية بعلم الإنسان والمؤيدة لمساواة المرأة، مدركة تماماً لقوة الفكر الذكوري الذي يبدو أنه تغلب تماماً على الكتاب المؤيدين لمساواة المرأة. فكتبت في عام 1984 ووصفت الطريقة التي بالغ فيها المجتمع الأمريكي في ذلك الحين في وصف عمل الذكر و نشاطاته. ورأت كيف بدأت النساء تحسد دور الرجل وعكست بذلك بدايات التقليل من أهمية «دور الأنثى الخلاق كزوجة وأم»؛ وحذرت من أنه عندما يقلل من قيمة البيت والعائلة «فإن النساء سيتوقفن عن التمتع بكونهن أمهات، ولن يحسد الرجال دور الأنثى ولا يقيمونه»[7].

يبدو أن «ميد» تتمتع بنظرة صائبة حول المستقبل. رأى المؤيدون لمساواة المرأة أن المجتمع الغربي بالغ بتقييم إنجاز الذكر أكثر مما قيم مساهمة الأنثى في البيت و العائلة. وبدلاً من تحدي «إعادة تقييم الأصوات النسائية» كان رد فعل المؤيدين للمرأة، «لسوء الحظ بالموافقة على أن هذا التقييم كان صحيحاً». ولذلك يوجد

اليوم عدد صغير من الموازنات الأنثوية لتقابل المبالغة بتقييم الذكور لما يقومون به من أعمال في مكان العمل وفي المجال العام. أدت حركة مساواة المرأة الحديثة إلى «عدد كبير من النساء»، يقللن من أهمية الأدوار التقليدية للزوجة والأم، ومن حسدهن لدور الذكر، تعاونت مع الرجال «في مبالغتهم لتقييم انجازات الذكور»[8]. وهكذا نصل إلى الوضع حيث تقول غرير، «إن ثقافتنا أكثر ذكورية مما كانت عليه قبل ثلاثين عاماً... وكرة القدم أكثر الأنشطة الثقافية أهمية في بريطانيا»[9].

هل عالم الرجال والأعمال والحياة العامة رائع حقاً كما يحب أن يفهمه عدد كبير من الرجال ـ وربما لأنه جزء من جعل ما يقومون به رومانسياً، وليجعلوه محمولاً ومقبولاً لهم، وطبعاً ليؤثروا بذلك على النساء بأهميته لقوام الرجال؟ طبعاً لا تعتقد «غراغليا» بذلك بعدما عملت لسنوات عدة في المهنة القانونية قبل أن تتخلى عمل مأجور لتنشئ عائلتها. وفيما يتعلق بالعمل القانوني تلاحظ أن هذا «أحياناً» يقدم تحدياً عقلياً مساوياً «للغز كلمات متقاطعة جيد، مع الفائدة بأن حل هذا اللغز سيعود بمكافأة مالية جيدة». ولكن بصورة أعم، «يشبه العمل القانوني ترتيب دليل الهاتف لمنهاتن ترتيباً أبجدياً». لقد قيل هذا عن القانون ـ الذي يحظى بفوائد أعلى من معظم الوظائف التي انتقلت المرأة إليها من عمل البيت. في كتابها (الفكر الأنثوي) قالت «فريدان» إنه من خلال العمل المأجور فقط استطاعت المرأة أن تشعر «أنها تعيش»: وتتساءل «غراغليا» إن كان لدى «فريدان» «أية فكرة حول كيفية قراءة القرارات القضائية، ومسودة التحقيقات، وكتابة نشرة تجارية، وتخطيط مقالات للشركة. إنها طريقة نظيفة لكسب عيش جيد ـ أجود من فحم المناجم ـ لكنها مبالغ في تقديرها كطريقة لتجعلك تشعرين «أنك تعيشين». وتقول كلا، حتى تشعر أننا نعيش، إنني أراهن على المساعدات الجنسية من زوجي في قراءة القرارات القضائية، بل وحتى من المحكمة العليا»[10].

بفرض أن ما تكتبه يمجد كل ما يفعله الرجال في أماكن أخرى، من الملاحظ بقدر كبير أنه حتى «سيمون دي بوفوار» لديها لحظات تنزل فيها إلى الجانب نفسه مثل «كاولين غراغليا». طبعاً إن التناقضات ذاتها موجودة في

كتابات «دو بوفوار». نعم إنها تخبرنا أن النساء تحتاج لأن يتحررن بالعمل من أي نوع، فتوحي بمديح يسهم به مؤلفو «ردم الهوة بين الجنسين». كما يصف أحد مؤيدي مساواة المرأة موقف «دو بوفوار»:

> كلما كانت المهنة أو الحرفة ممتعة ومتحدية كلما كانت أفضل طبعاً. ولكن حتى عمال المعامل حينما يجدون أطفالهم وموقدهم أكثر جزاءاً يجب أن يحرروا أنفسهم ويلتصقوا بآلاتهم. وأي حل وسطهم هو التباس وخداع للذات. حتى يصبحن كائنات إنسانية أصيلة يجب على النساء أن يعملن كما يعمل الرجال من قلوبهم وبكليتهم ـ من أجل المال. ومن ثم يكون في النهاية نظام بين الجنسين ولن يستطيع الرجل أن ينظر إلى المرأة على أنها «الأخرى»؛ وسوف يلغى الاعتماد المهين على الرجل، نفسياً واقتصادياً[11].

ولكن حينئذ، وربما بلحظة مراجعة، وربما إنها نسيت أن «جان بول سارتر» يراقبها، تقارن «سيمون دو بوفوار» عاملاً عادياً و زوجته، وتقرر أنه في الحقيقة الواقعية قد تكون أمور أكثر كثيراً تجري لصالح الزوجة. فالعمال العاديون «مقدر مصيرهم كالنساء بتكرار الواجبات اليومية، يوصفون بقيم جاهزة، و يحترمون الرأي العام ولا يبحثون عن شيء على هذه الأرض سوى عن راحة غامضة». ولهذا السبب تكتب «دو بوفوار» إن العمال العاديين «ليسوا متفوقين بأية طريقة عن النساء المرافقات لهم. فبالطبخ والغسيل وإدارة بيتها وتربية الأطفال تظهر المرأة مبادرات أكثر واستقلالية أكثر من الرجل الذي تستعبده الأوامر». ولأن حياة الرجل العامل تجبره على أن «يطيع أوامر رؤسائه ويلبس الياقة البيضاء ويحافظ على وضعه الاجتماعي»؛ والزوجة من جهة أخرى «تستطيع أن تبدد وقتها بالشقة وهي بدثارها، تغني و تضحك مع جاراتها». وتضع الزوجة يديها على الحقائق بقوة أكثر من الرجل العامل: «فعندما ينهي العامل حساباته أو يحول علب السردين إلى أموال، لا يبقى بيده شيء سوى المجردات». وبالنسبة للزوجة، من جهة أخرى، «إن الطفل تناول طعامه وهو في مهده، والملاءة النظيفة والشواء جميعها أشياء ملموسة بصورة أكبر»[12].

ولكن ينفتح خط آخر من نقاش مؤيدي مساواة المرأة. فيقول بعضهم إن انتقال النساء إلى عالم الرجال ـ من العمل والسياسة ـ سيؤدي إلى تحسين في هذه المجالات لأن النساء قادرات على تأنيثها بتصورها. ولا يبدو أن هذا قد حصل قط. والأهم من ذلك يبدو أيضاً أن ما قيمه كثيرون حول النساء قد يضيع عندما تنتقل النساء ككل إلى المجال العام. تقول مؤيدة مساواة المرأة من أستراليا، «جين كينوي»، في سياق أخطار النساء اللواتي يفقدن قواهن وقيمهن عندما ينتقلن إلى الميادين الخاصة بالذكور تقليدياً: «بفرض أن عدداً كبيراً من الفتيات والنساء توصلن إلى هذه الميادين ونجحن، وبفرض أن هذه الميادين بقيت كما هي دون إعادة بنائها على الرغم من الوجود الأنثوي القوي، فما هي احتمالات النتائج الاجتماعية على المدى الطويل؟». وتعتقد أن هذه واضحة: «إذا لم تكن النساء واعيات، ألا يمكن أن يصاحب ذلك بعض الخسائر في «تفكير الأمومة»؟ في مكان العمل، بعد أن نتعلم أن نكون «عقلانيين واثقين ومنظمين ومحايدين وموضوعيين ومنافسين ومتميزين ومتنقلين اجتماعياً، فيمكن أن نكون لم نتعلم بعد تلك المقدرات الجانبية كالحساسية والتعاطف التي لا يستطيع أي مجتمع متحضر أن يوجد من دونها». وربما تقترح على استحياء بأن هذه المقدرات «يمكن أن تعتبر كقوة للمجتمع... فالإناث غالباً ما تعمل على تقديم المبادئ الأخلاقية (أم المبادئ الأخلاقية) التي قد تنقص المجالات العامة للأعمال والحكومة»[13].

وتفكر «فريدان» أيضاً بخطوط تفكير مماثلة في كتابها (المرحلة الثانية)، وتلاحظ كم من النساء في مجال العمل والسياسة يصبحن مثل الرجال الذين كن يتهمنهم بالماضي: وسألت «ما هو ثمن مساواة المرأة إذا كانت المستفيدات منها، وهن يردن التغلب على الرجال بألعاب القوة القديمة ويسعين إلى تسلق سلم الوظائف في الشركات بقوة ويسقطن في أفخاخ الرجال، يبدأن بالهروب وهي تصنع القناعة والرضى بالحياة وهي أساسية بالنسبة للرجال والنساء؟»[14] وكذلك «غرير»:

يتخذ فهم المساواة من وضع الرجل كما هو الوضع الذي تطمح إليه النساء. يعيش الرجال في مجتمع مستبد وغير حر بصورة مخيفة، مبني على اضطهاد الكبار للصغار، وعلى رعاية الذكور المفضلين لمتابعة العمل على حساب الآخرين، وعلى التحالف والمؤامرات، وعلى المبادرة والطقوس الدموية، وعلى سلوك غير اجتماعي، وعلى النبذ والعقوبات، وعلى النكات العملية وعلى العشائرية والتمييز. وحالما تدخل المرأة حكر الذكور، وليكن ذلك الشرطة أو الجيش أو موقع بناء أو القانون أو الكهنوت، تجد نفسها في عالم غريب وبغيض يغيرها تغييراً أساسياً حتى وإن كانت تكافح لتمارس تأثيراً صغيراً فيه.

على كل حال، إنها تقول، «إن النساء اللواتي يخترقن المواقع الخاصة بالذكور لسن محل ترحيب عادة، ويبقين بعيدات ويعاملن كسلعة جنسية، هذا إذا ما لوحظن أصلاً. لا تستطيع النساء فرض تغيير على سلوك الذكور هذا لأنه ليس لديهن قوة مساومة وذلك لأن الذكور لا يهتمون إن كانت النساء هناك أم لا»[15].

ولكن مهلاً: أليست القضية بكاملها أكاديمية نوعاً ما؟ وبمثابة نقاش كملجأ أخير (وبالتأكيد ليس كذلك النقاش الذي أثاره الانتقال إلى العمل بالمكان الأول)، ألا يستطيع مؤيدو مساواة المرأة أن يناقشوا بأن على النساء أن يذهبن إلى العمل الآن بدافع الضرورة الاقتصادية؟ وهذا ما يخطر لي دائماً بأنه أغرب خط نقاش أتخذه ?أنه في أغنى المجتمعات التي عرفها هذا الكوكب، لا تستطيع العائلات أن تتحمل تقسيم العمل في المنزل والحياة العملية الذي يؤخذ على أنه بديهي حتى في أشد المجتمعات فقراً. قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لبعض العائلات الأكثر فقراً في مجتمعاتنا ـ وإذا كان كل ما قيل في هذا الفصل صحيحاً، فإن هذا سيؤدي إلى مشاريع سياسة لمواجهة الفقر النسبي لهذه العائلات حتى تستفيد من الأمهات وربات البيوت المتفرغات، إذا كان هذا ما تريده الناس. ولكن بصورة عامة، لا يدعم الدليل هذا الإدعاء. في أمريكا، إن العائلات التي فيها الزوج هو الكاسب الوحيد ذوات دخل وسطي يساوي أو يقل عن متوسط الدخل

للعائلات جميعاً. و يعمل عدد من النساء المتزوجات من رجال ذوي دخل عال أكبر من عدد النساء المتزوجات من رجال ذوي دخل أقل. بالتأكيد إذاً ليست النساء العاملات مجبرات على الذهاب إلى العمل كي تحافظ على التكافؤ مع العائلة المتوسطة: إنهن يقررن أن يعملن بصورة عامة لزيادة دخل العائلة حتى يرتفع فوق متوسط الدخل. فالعمل من أجل الرفاهية و الترف وليس من أجل الضرورات. وفي جميع الأحوال تظهر الأرقام، في أمريكا أيضاً، بأنه حين يزيد راتب الزوجة 60000 دولار فقط، يبقى من راتبها أكثر من عشرين بالمائة منه بعد دفع الضرائب والنفقات المتعلقة بالعمل[16].

وما يهم النساء فقط هو أن يتمكن من دعم أنفسهن طبعاً، إذا ما حدث وأصبح الأزواج لا يعتمد عليهم. فإذا كانت النساء لا يستطعن أن يثقن بأزواجهن في أن استطاعتهم أن يأتوا بأجر العائلة، وإذا أصابهن خطر يتعلق بذهابهم، يكون لدى مؤيدي مساواة المرأة نقطة هامة حول حاجة النساء إلى استقلالهن الاقتصادي. سنعود إلى هذه القضية المهمة بعد لحظة.

العام والخاص

لقد وصلنا إلى التمييز الحيوي فيما يخص «العام» و «الخاص». فبالنسبة لمؤيدي مساواة المرأة يكون هذا التمييز حاسماً بالنسبة لمقولاتهم حول اضطهاد النساء. تناقش الفيلسوفة النسائية، «كارول باتمن»، على سبيل المثال، «بأن الانقسام الثنائي بين العام والخاص أمر مركزي لفترة قرنين من الكتابات المؤيدة لمساواة المرأة وكتابات الصراع السياسي». وهي تؤكد بالفعل بأن التمييز «هو بالنهاية موضوع الحركة المؤيدة لمساواة المرأة». فعالم «العام» مجال السياسة، والعمل هو مجال الرجال بصورة تقليدية. و«الخاص» هو منطقة العائلة والبيت.

وما يجعل التمييز حاسماً بالنسبة لتأييد مساواة المرأة هو أن المجال «الخاص» يعتبر بصورة تقليدية المجال الصحيح للنساء وذلك بسبب طبيعتهن، بينما يعتبر «العام» المجال الصحيح للرجال. والإدعاء بأن هذين المجالين متساويان يغفل

«الحقيقة الأبوية للبنية الاجتماعية من اللامساواة وسيطرة الرجال على النساء. ونتج عن ذلك أن الصراع من أجل مساواة المرأة يكون بجعل النساء والفتيات مرتاحات في المجال العام مثل الرجال والأولاد لأنه من خلال هذا الطريق يمكن أن يتحقق إنصاف النساء وإنهاء السيطرة[17].

لننظر إلى هذا الموضوع عن كثب ونرى كيف يتعلق بنقاشنا السابق، والذي يبدو أنه يقترح أن مؤيدي مساواة المرأة يبالغون بقيمة المجال العام على حساب المجال الخاص. إذا كان التصنيف في المجال الخاص يعني الاضطهاد، كما يرى الفلاسفة المؤيدون لمساواة المرأة، فربما نكون قد أضعنا شيئاً مهماً؟ (سوف نعرف الاضطهاد بعناية أكبر في الفصل 7: أما الآن فسوف نمضي مع المفهوم الحدسي عما يكون). يجرب فيلسوف مؤيد لمساواة المرأة، «كينيث كلاتربو»، طريقة خيالية ليري الرجال كيف يشعرون في حال اضطهادهم بهذه الطريقة:

> تخيل أن عالمنا قد سيطر عليه غرباء يشبهون الإنسان وأقاموا هيمنة جديدة على سمات يتم تقييمها على أنها من صنع الإنسان. وهم يراجعون ويعكسون السمات التي يعتقد أنها تخص الذكور ومن أجل ذلك كانت الحياة الاجتماعية لصالح الذكور. ويتطور علم معقد يعلم أن الرجال تسيطر عليهم الأعضاء الجنسية ومشاعر الغضب. وما يسمى بمقدراتهم العقلية ترى في العالم الجديد عقلنة لدعم حاجاتهم الحيوية والعاطفية. وتنظر إلى إنجاز الذكور في الفنون والآداب والفلسفة والرياضة في صفحات التاريخ و/أو تعالجها على أنها إنجازات تافهة. ومجموع السمات الجديدة ذات القيمة والمعترف بأنها من صنع الإنسان تشمل السمات التي لا يتفوق بها الرجال بصورة تقليدية. وتنجم أزمة يفقد فيها الرجال الثقة بأنفسهم ويناضلون ليعيشوا لتحقيق المفهوم الجديد، مع أنهم لا يكادون يرون أنهم يفعلون ذلك. وبإيجاز، لا ينصف الرجال كما لا ينصف النساء في هذا المجتمع الجديد؛ وينظر إلى الرجال على أنهم نساء عاجزات وذلك بحسب مبدأ الكائنات البشرية العاجزة. في عالم كهذا يكون الرجال مضطهدين[18].

هناك مشكلة واضحة في هذه الطريقة مع أنها خيالية. أجل، من السهل أن نتخيل وجودنا في عالم كهذا ونشعر بأننا مضطهدون بمعنى ما، ولكن من السهل أيضاً أن نرى كيف يمكن نقل هذا الوضع الاضطهادي لنجعله أكثر جنسياً بالنسبة لي كرجل. لأن المشكلة في المجتمع كما رسمته «كلاتربو» أنه لا يوجد مكان آخر أستطيع به كرجل أن أكسب الاحترام والإنجاز. لا يقيم هذا العالم وزناً لإسهاماتي الذكرية وحتى طموحاتي بصورة متميزة، لذلك فإنني مضطهد كرجل. ولكن بينما يفرض هؤلاء الغرباء الذين يشبهون الكائنات البشرية نظامهم الأنثوي على العالم، يكون هناك عالم مواز قيد الإنشاء. هنا يستطيع الرجال فعل كل إنجازاتهم الذكرية الموجودة في الفن والأدب والسياسة والرياضة التي لا يزالون يستطيعون التفوق بها والشعور بقيمتهم. والشرط هنا أن هذا العالم يوجد كعالم مواز لعالم الإناث، عندها يمكنني كرجل أن أجد الشيء القليل لأشكو منه. وقد أنظر أحياناً نظرة حسد إلى العالم الأنثوي وأتمنى أن أكون جزءاً ذا أهمية أكبر في ذلك العالم. ولكن بصورة عامة، سأنغمس في عالمي الخاص؛ وبالفعل يحتمل أن أعمل على مساعدة بقاء الفكر الذكري الذي يحتاجه للاستمرار ويكون كل شيء على ما يرام.

أليس هذا المفهوم ـ لعالمين متميزين يزدهر فيهما الرجال والنساء (بشكل عامة) بصورة متميزة ـ تماماً مثل تميز بين العام والخاص الذي ينال مؤيدو مساواة المرأة تهذيبهم؛ على الرغم من رؤيته من زاوية مختلفة بصورة حاسمة؟ أليست هذه الزاوية المختلفة مضيئة نوعاً ما؟

بينما كنت أكتب هذا، كنت أقرأ عمل الروائية الهندية، «تشالا مونيك»[19]. تحكي رواية (الغزاة) قصة البريطانيين في الهند من سنة 1757 إلى سنة 1867. كتبت هذا العمل امرأة هندية بارزة ـ إضافة إلى كونها كاتبة كانت وزيرة التربية في حكومة عموم الهند في نيو دلهي ـ وذكرت الكثير جداً من و جهة نظر امرأة. وكان الشيء المركزي في العقدة الحب والعائلة وإنشاء السلالات وعقد الزواج

والانفصال؛ أجل، والطعام والتنسيق الداخلي. وعلى الهوامش كانت المعارك وصراعات القوى وبناء الإمبراطوريات المالية والسياسية. وكان كل هذا النشاط الجانبي يوصف عرضاً أو يلقى على عجل لأن امرأة قد طلبت من الرجل أن يذهب و يقوم بالعمل، كبناء سلالة أقوى أو أن يقاتل من أجل شرف امرأة. أو في بعض الأحيان نادراً ما كان يوجد حيرة مخبأة حول ما يجعل الرجال يقومون بمثل هذه الأعمال أصلاً، ويوجدون في منتصف الطريق في القضايا المركزية للعائلة والسلالة و الاستمرار.

بالطبع تحكي نسخة الذكر من التاريخ الهندي قصصاً مختلفة وربما تحكي قصص أبطال الهند الذين يقاومون الأعداء البريطانيين، أو تحكي قصص الأبطال البريطانيين الذين يغزون شبه القارة الواسعة المنتحبة. إنها تروي قصص الرجال الأقوياء والشخصيات السياسية من كلا الطرفين، وكذلك التجار الأقوياء. إنها تحكي قصص الحاكمين والمحكومين، وقصص المعارك والحروب. وعند قراءة النسخة الذكرية من التاريخ الهندي، من النادر أن تجد شؤون النساء وهمومهن. فالنساء اللواتي تروي القصة في (الغزاة) يضيعن القضية. إن التاريخ الهندي ـ نعم، لماذا لا يكون ذلك في عند بعض مؤيدي مساواة المرأة «قصتها» ـ كله حول العائلة وقوة النساء لجعل الرجال يفعلون ما تريده النساء لعائلاتهن.

إنني واثق من أنني سأكسب إحساساً مماثلاً عند قراءة «جين أوستن» أو قراءة أية روائية أخرى من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وبالطبع قد يتكون الإحساس نفسه من قراءة مذكرات «بريدجيت جونز» وما تلاها. عندما توجد أحداث مسلية بصورة خاصة تتعلق بكرة القدم ـ تريد البنات مشاهدة مباراة كرة قدم من مباريات كأس العالم ليماثلن ما يقدره ويقيمه الشباب، فتستعد البنات لفعل ذلك، وحتى إلى الحد الذي يستطعن معه نقل خبر النتائج إلى الصديق «مارك دارسي» الذي إنه م يتمكن لأسباب عدة من حضور المباراة. ولكن بعد الاستمتاع المؤقت بمشاهدة الرجال وهم يركضون بسراويلهم القصيرة، تضيع

اللعبة عندما تنتقل الفتيات إلى علاقاتهن المعتادة وعلى الكتب التي تساعدهن؛ يضيع الشيء «غير الأساسي» لصالح الشيء «الأساسي». وذكرت «بريدجيت» بطريقة خجولة إلى «مارك» إنها أضاعت النتيجة النهائية، وبالواقع أية نتيجة. وبمناسبة أخرى، أجرت محادثة مع «مارك» حيث ظنت أنهما يتحدثان حول علاقتهما ـ وكانت مسرورة بنظراته الثاقبة وردود فعله العاطفية ـ ولكن في الحقيقة كان يتحدث عن مباراة كأس العالم بين إنكلترة والأرجنتين وفيها تم طرد «ديفيد بيكهام» لضربه أحد خصومه أمام الحكم[20].

> هي المدى الذي تنظر فيه النساء في جميع المجتمعات إلى انشغال الرجل بالسيطرة والمتابعات العائلية بالطريقة ذاتها التي تنظر الزوجة إلى المجتمع الغربي إلى وساوس زوجها بكرة القدم المحترفة ـ مع تنازل محب وتفهم بحيث يعانق الرجال الوكيل وينسون الأصل[21].

تلاحظ «سيمون دو بوفوار» مرة أخرى الشيء ذاته في لحظاتها الأكثر رقة: فتلاحظ أن «النساء في الأسواق تتحدث عن الشؤون المنزلية باهتمام مشترك وتشعر بأنهن أعضاء في مجموعة ... تعاكسها مجموعة من الرجال كما يعاكس الشيء الأساسي ما هو غير أساسي». فتتزعج الزوجة إذا كان زوجها وأطفالها غير جائعين إلى درجة يتعجب المرء عندها إن كانت البطاطا المقلية لزوجها أم كان زوجها البطاطا المقلية. وبالفعل إن كل ما تفعله ربة البيت يؤكد هذه النقطة. وتقول: «إنها تهتم بالبيت من أجل زوجها؛ لكنها تريد منه أن ينفق كل ما يكسبه على التجهيزات والبراد الكهربائي. وترغب في إسعاده ولكنها توافق على نشاطاته فقط عندما تكون ضمن إطار السعادة الذي أعدته»[22].

كانت لدى فكرة غريبة مفادها لو أن المربين المؤيدين لمساواة المرأة يقرؤون لروائيات أكثر لاختلفت صورة العالم لديهم. فمن قراءة الكتاب من الرجال والاستماع إلى الأخبار ومشاهدة المنافسات الرياضية يتكون لديك شعور بأن ما هو مهم هو عالم الذكور. قد تشارك النساء في كل هذه العوالم طبعاً، لكنها

عندما تفعل لا بد أن يكون هناك شيء مرتبك في رؤية جنسهن إما لا ينافس بشكل جيد بصورة عامة ضد الرجال (في السياسة، على سبيل المثال) وإما ينبغي فصلهن في مناطق للفصل لأنهن لا تستطعن أن يأملن بالمنافسة على أسس متساوية. في بطولة رياضية عالمية حديثة، على سبيل المثال، استغرق الفائز في سباق المائة متر جري المسافة 9، 86 ثانية. وكان الزمن للمركز الأخير لنهائي الذكور 10.29 ثانية. وبالفعل كانت أبطأ سرعة في عملية الاستعداد للذكور 10، 48 ثانية. لو تنافس الرجال و النساء معاً في السباق ذاته لما تأهلت أية امرأة للجولة الثانية، ولنترك الحديث عن النهائيات! يبدو لي دائماً الأمر غريباً بصورة لا تصدق بأن أية امرأة ترى هذا الأمر سبباً لشهرة أنثوية.

تلاحظ «جيرمين غرير» بحذر أن هذا الفرق بين الرجال و النساء يصبح واضحاً بصورة دهشة في برنامج مسابقات في محطة بي بي سي، التحدي الجامعي:

> الفرق المؤلفة من الذكور أمر شائع وتتمثل جميعها بنتائج عالية؛ وتضع معظم الفرق امرأة تقدم إجابات قليلة جداً عن الأسئلة، وليس بالضرورة لأنها لا تعرفها، ولكن لأنها أقل هجومية وأكثر خجلاً فلا ترفع صوتها بالإجابة التي قد تكون إجابة خاطئة. وأخفض النتائج المنجزة في برنامج (التحدي الجامعي) حققها فريق مؤلف من النساء من نيو هول من كامبريدج.

إن منطق موقفها هو كما يلي: وهذا أكثر خطأً لغباء البرنامج (التحدي الجامعي). لماذا بحق السماء تريد النساء أن تزعجن أنفسهن بهذا الهراء الذكري؟ ذلك النوع من مساواة المرأة كالحصول على عضوية نادي الكريكيت MCC أو نادي غاريك الذي يعتبر انتصاراً نسائياً خاصاً بالفعل.

بالفعل، إن حقيقة وجود عدد كبير من الفتيات الجذابات الآن في التلفزيون والإذاعة ـ «حشد من الفتيات الصغيرات و عدد غير محدود من المأجورات اللواتي يمكن استبدالهن» ـ تنقل الأخبار حول النشاطات الرياضية التي يسيطر عليها الذكور، والأعمال والسياسة كلها تضيف وزناً للمفهوم بأن ما يفعله الذكور

هو مهم. ليس من مكان يوضح هذا بصورة دراماتيكية أكثر من نقل أخبار الحرب التي تظهر بصورة كلية على شاشات التلفزيون في هذا الوقت. صور كثيرة لـ «لارا لوغان» من تلفزيون GMTV تتحدث مباشرة على الفيديو فون من وادي بانج شير في أفغانستان، تغطي نفسها بشال نظيف وزهري اللون، بينما تقوم القاذفات بالقصف وتحترق الأبنية، وهي تنقل إلى الملايين بطريقة قوية شرعية المجال العام لما يقوم به الرجال ويتفوقون على الحياة المنزلية للنساء.

إننا تعودنا على المقولة المؤيدة لمساواة المرأة بأن التمييز بين العام والخاص يستبعد النساء من عالم الرجال بحيث يكون النظر إليه من منظور معاكس أمراً تشقيفياً، ويكون العالم الخاص الأول والأعلى والأساسي، ويكون الرجال مستبعدين منه، وممنوعين من عالمهم الخاص الأدنى والأقل والثانوي. وتنظر النساء عليه ـ حتى يستعملنه لصالحهن، حتى وقت متأخر وبصورة منغمرة، عند الحاجة، وهن بالتأكيد لا يتضايقن من استبعادهن منه. ولدى «غرير» عبارة عظيمة حول المجال الخاص: «ثقافة أنثوية تثبت ذاتها». تقول: كم هو مثير للشفقة أن تكون النساء حزينات لدرجة الجنون لأنهن لسن جزءاً من العالم الذكري: «ليس الأمر أن الرجال لن يسمحوا لنا دخول سباق الذكور» لأن من الواضح بأن الرجال سوف يفعلون ذلك؛ وقد يكون ذلك في صالحهم : «الأمر إننا نريد بصورة كبيرة أن ننضم، وإننا نؤذي كثيراً احترام الذات قبل أن ندرك بأن الحلة ميؤس منها».

والآن إن لدى «جيرمين غرير» اقتراحاً حول كيفية إعادة تثبيت الأنثوية ـ وهو هنا، أعتقد أن آراءها تختلف عن آراء تلك النساء من أمثال «كارولين غراغليا» و «دانييل غريتندين». بعد ملاحظة أنه لا يوجد مجتمع حيواني «حيث تستطيع الإناث غير المنافسات أن تسحب السيطرة من الذكور المنافين الذين سيخضعون لسحبهن» ـ بالفعل، مثل هذا «قد يكون تناقضاً في الشروط» ـ وتلاحظ بأنه عوضاً عن «اختيار الإناث غير المنافسات العيش كمجتمع إناث وأطفال مع قائد

ذكر مفرد أو من دونه». ولكنها تشجب، «مجتمعات إنسانية متقدمة تعتبر مثل هذا الفصل تخلفاً، وتفترض أنها قد فرضتها على الإناث استبدادية الرجل». وما ترى أنه «بديل محترم» هو المحاولة الدائمة لتقليد الرجال فيما يفعلونه «للنساء أن يفصلن أنفسهن كما يفعل الرجال». يتعين على النساء أن يتخذن قراراً واعياً بألا يرغبن بصحبة الرجال أكثر مما يرغب الرجال بصحبة النساء. إذا كان هذا يعني الفصل، ليكن. وإذا كان البديل إهانة، فلا يوجد أي بديل».

ولكن ما يقوله نقاشنا هنا إن هذا ليس البديل الوحيد؛ يوجد بديل آخر، وهو بديل واضح تغض الطرف عنه. وهو بديل يحتمل كثيراً أن يروق لكثير من النساء أكثر من الفصل، بفرض أن معظم النساء لا يرغبن في التخلي عن الرجال تماماً. كلا، إن «البديل المحترم» لتلك النساء الراغبات بذلك هو القيام بابتكار التمييز ما بين العام والخاص من جديد. فهذا ينفذ كل ما تريد غرير أن تحققه من الفصل وهو حرفياً إعادة تقييم الأنوثة من دون خسارة الرجال تماماً. أو قد يكون هذا هو تماماً ما تقصده «غرير» بالانفصال؟ فهي تفتتح كتابها بإخبارنا كيف وجدت «المرأة الكاملة» التي ألهمتها عنوان كتابها: لقد حدقت بالنساء في مجتمعات الانفصال ووجدتهن بطرق كثيرة أقوى من النساء اللواتي لا يذهبن إلى المسرح أو المطعم من دون رجل... وعلمت حول السرور الجنسي من نساء كن محصنات ضد الجنس. «وهناك مجتمعات حيث «تنمو سلطة المرأة وهي تتقدم بالسن» خلافاً لمجتمعاتنا حيث تبدو نظرات الفتوة تصف كل شيء. هذه المجتمعات «الانفصالية» التقليدية هي المجتمعات التي يكون فيها التمييز بين العام والخاص أقوى ما يكون. فإن سمح المجتمع مرة ثانية لهؤلاء النساء اللواتي يرغبن باسترجاع هذا التمييز، فسوف تجد «جيرمين غرير» من جديد «امرأتها الكاملة».

تلاحظ غرير أن النساء لا بد أنهن «احتفلن بالتمييز، ولكنهن بدلاً من الغناء والرقص بأن الأمومة جميلة، قمن بالدراسة». وماذا كن يدرسن؟ «لقد درسن النساء ودرسن الجنس. وأوجدن الآلاف من المواد الدراسية حول المرأة في

الجامعات، والتحق بها ملايين الطلبة»[23]. ودرسن وكتبن كتباً مثل «ردم الهوة بين الجنسين» الذي يحتفل لا بتمييز النساء ولكنه يوحي بحقيقة أن الفتيات والنساء يصبحن غير متميزات عن الشباب و الرجال.

الاستقلال مقابل الارتباط

إن المجال العام مبالغ في قيمته، وكله جزء من الفكر الذكري الذي استهوى مؤيدي مساواة المرأة. وربما يقال الشيء ذاته عن الرغبة بالاستقلال في العلاقات، وهو العنصر الثالث من نقدنا للمربين المؤيدين لمساواة المرأة.

بالنسبة لمؤيدي مساواة المرأة، تعامل فتيات الطبقة العاملة وكأنهن قصص يمكن أن تحكى بمعزل عن الصبية والشباب. ففي كتاب «ردم الهوة بين الجنسين» والوثائق الحكومية من جانبي المحيط الأطلسي، اعتبرت الفتيات عبارة عن جزر. و لكن لديهن عبء الأطفال، ومع ذلك إن فرديتهن وتحقيق الذات هو المهم جداً. لا يوجد ذكر للترابط المتبادل فيما بينهن من جهة وبين الصبية من جهة أخرى. والإشارة الوحيدة إلى احتمال أن يكون هذا مشكلة لا تأتي عندما يناقش المؤلفون البنات ولكن عندما انتقلوا إلى ناقشة الصبية. وهنا يلاحظون بطريقة عرضية ودون التقاطها عنصراً آخر من أعراض «بريدجيت جونز»: ناقشت البنات الزواج في إطار الصبية إما «إنهم يخذلونك» وإما «إنهم ليسوا أزواجاً جيدين». هل يمكن أن يكون جزء من اعتراض البنات على «العبء المنزلي» للزواج بسبب إحساسهن بأن الرجال لم يعد يعتمد عليهم؟ وهل يمكن أن جزءاً من هذه المشكلة قد برز بسبب مشكلة تزايد فقدان الترابط بين الصبية والفتيات؟

يتضخم هذا الشك الدائم عندما نلتفت إلى الكيفية التي يصف بها مؤيدو مساواة المرأة فتيات الطبقة العاملة والشابات. بالنسبة لهؤلاء الشابات، إن النجاح بمهنة واحدة الآن فائق الأهمية. طبعاً يكشر المؤلفون، «ينظر إلى الحياة العائلية كهدف على أنها هدر ة إتلاف لمواردهن الإنسانية والمالية»، لكن هؤلاء النساء

يحتقرن الآن «المهن ذات الوضع المتدني مثل التعليم والتمريض»، مهن واجهنها في الماضي. إنهن الآن جميعاً يردن أن يكن طبيبات ومحاميات ومديرات تنفيذيات من المراتب العليا. ولا يبالي معظمهن كيف يؤثر هذا على علاقاتهن بالرجال. في الأيام التي سبقت التربية المؤيدة لمساواة المرأة من السبعينيات وحتى الثمانينيات، لم تكن البنات يرغبن «بتغريب الرجال عن طريق ظهورهن بأنهن ذكيات جداً أو ناجحات جداً»، وبذلك طورن «خوفاً من النجاح»، كما قالوا لنا. ولكن في أواخر التسعينيات، كانت نساء الطبقة العاملة «تهدف إلى أعلى المستويات التعليمية في المدرسة والجامعة وتحققها سواء أثر هذا في تغريب الشباب أم لا»[24].

ويخطر التفكير المثير للإشكال بأن هذا التحديق باستقلال الشابات في الوقت الحالي يتجاهل الإمكانية بأنهن يغربن الشباب ــ وبأن هذا يهم، أو سوف يهم، ليس بالضرورة الشباب، ولكن يهم الشابات أنفسهن. ?وقصة الشابة الحرفية في الفصل 1 توضيح لهذه الظاهرة، القصة التي لاقت أصداء عديدة في دراسة أشكال المغازلة والخطوبة بين الشباب والشابات في المشروع الوطني للزواج في جامعة روتجرز[25]. هذا الرفض للاعتماد التبادل والترابط هو ما يجعلني أتساءل إن كان مؤيدو مساواة المرأة يخطئون شيئاً مهماً جداً هنا.

«الارتباط» كلمة لست معتادة على استعمالها. ووجدتها في كتاب كاري باشتر (تثقيف الآخر). لقد لاحظنا من قبل أن «باشتر» تريد أن نعيد تقييم الأساليب الأنثوية للمعرفة وللوجود، وهذه إحدى الفضائل الأنثوية التي تريد أن نعيد تقييمها. إن قراءة عملها تشبه استنشاق نفس من الهواء المنعش بعد قسوة الفردية في كتاب (ردم الهوة بين الجنسين) و (راقب جين تفوز) والتقارير الحكومية البريطانية والأمريكية. وهي لا تمضي وقتاً طويلاً حولها، ولكن عندما تفعل فيبدو أنه مفعمة بالأهمية. نعم، إنها توافق، علينا أن نتأكد من «أن النساء لا يقف شيء بوجه ترقيتهم في جميع الميادين وعند كل المستويات»؛ ولكن هذا

يعني أيضاً «تقييم ترتيب العمل التعاوني إضافة إلى النموذج الذكري التنافسي». لكن المهم، من حيث العلاقات الإنسانية وتربية الأطفال، إن طريقتها «تعني الاعتراف بالارتباط مثل الاستقلال»[26].

ماذا يمكن أن يعني هذا الارتباط عملياً؟ وماذا يمكن أن يفقد المؤلفون المؤيدون لمساواة المرأة هنا؟ دعونا نرى ماذا لدى الشباب والرجال يقولونه لتعبئة الصورة. إن مناقشة (ردم الهوة بين الجنسين) هي وجود «أزمة في الذكورة» وجزء من سببها حقيقة أن الرجال لم يتعايشوا مع الآراء «التقدمية» حول شركائهم من الإناث. وبصورة خاصة، إن الأولاد والبنات مرتابون بشأن الأفكار الجديدة حول الاستقلال التعليمي والمهني. لا يزال الرجال يعودون إلى نقطة البداية بشكل ساخر، أو إن جزءاً من حركة رجعية من كره النساء ومن الاضطهاد، إلى شيء لم يعد بصراحة يمكن الوصول إليه، وهم الرجال المخطئون هنا والذين يجب أن يتغيروا، وليست النساء. في مناقشتهم لهذه المواضيع، يكشف مؤيدوا مساواة المرأة عن شيء مهم جداً حول موقفهم الذي يفكر بالاعتماد المتبادل للرجال والنساء.

ويتبين أن الصبية والرجال مذنبون بالرومانسية أيضاً؛ وهذا بالفعل الجانب المعاكس «لرومانسية الحياة العائلية» التي جرى تحرير نساء الطبقة العاملة منها. وبالواقع، إن واحداً من «الفروق الرئيسية بين الشباب والشابات اليوم»، كما يلاحظ المؤلفون، هو دعم «النماذج الفيكتورية للعائلة حيث الرجال هم من يكسبون العيش والنساء هن اللواتي تهتم بتربية الأطفال بصورة رئيسية». والشباب هم من يؤيد هذا المثال «الفيكتوري» ـ ويستخدم بازدراء ـ وليست الشابات.

لا يشارك رجال الطبقة العاملة البنات بآرائهن الحالية حول «الواقعية غير الرومانسية» حول الحياة العائلية. عبر معظم الشباب في إحدى الدراسات عن «رغبتهم بالزواج». وبالواقع، في إحدى الدراسات، «وافق نصف الرجال على العبارة بأن مكان المرأة هو البيت لتعتني بعائلتها». ورغب «الشباب بالاحتفاظ بدور الذكر الكاسب للعيش، على الرغم من ازدياد الدليل على بطالة الذكور،

وارتفاع عمالة الإناث وتوقعات البنات بفرص مشاركة متساوية». و «أقلية مهمة من الشباب ما بين سن الثامنة عشرة والرابعة و الثلاثين» يصبحون «مقاومين الاجتماعيين والناجين»، و «لا يزالون يتعلقون بالهويات القديمة المعلقة بدور الذكر في كسب العيش وبالتقسيم التقليدي للعمل الذي يؤكد على تفوق الذكر». لكن اللغة المستعملة هنا توضح أن المؤلفين يسخرون من هذا. هؤلاء الرجال هم «المقاومون الاجتماعيون»، يقاومون بازدراء التغيرات المحتومة التي تسلك طريقها. والمؤلفون جميعاً يعبرون عن هذا بطريقة سلبية: الشباب يريدون أن يتزوجوا «ليجدوا مثيلاً لأمهاتهم يطبخن لهم ويراعونهم»، ويرغبون في وضع النساء في «موقف أدنى لتقديم الخدمة».

كجزء من عملهم لجعل كل شيء رومانسياً، يلاحظ المؤلفون أن «تعلق الشباب بالحياة العائلية التقليدية يرمز للذكورة ـ ويربط الطاقة الجنسية الذكورية، وهويات العمل ومسؤوليات العائلة». وفي الواقع، «إن السبب الرئيسي الذي يعطيه الرجال والشباب للدراسة والعمل هو إعالة العائلة».

ولكن في حال اعتقادنا أن موقف الذكور قد يكون شيئاً جيداً ـ يبدو بالتأكيد أن يكون تماماً ما تبحث عنه «بريدجيت جونز» في الرجل ـ يضيف المؤلفون أن «السبب الرئيسي الذي يقدمه الرجال والشباب للنساء اللواتي لهن دور عائلي تقليدي إنما هو ليدعم الأشكال الذكرية التقليدية»، والنسخ التقليدية للذكورة بالنسبة للمؤلفين هي قطعاً غير مبهجة ويجب التغلب عليها. ويقول المؤلفون إن ما هو مطلوب «بدائل ذكورة جديدة»، تتحدى «أشكال الذكورة المسيطرة» بطرق تمارسها «مجموعات مؤيدي مساواة المرأة وتحرير المثليين».

ولكن قد يكون هناك تفسير بديل، تفسير يوضح آراء الرجال في ضوء أكثر إيجابية. بعيداً عن الرغبة بتجنب مسؤوليات الزواج والعائلة ـ وهي المشكلة الكبيرة في مقدمة (مذكرات بريدجيت جونز) ـ يقوم هؤلاء الشباب والرجال بجعلها كلها رومانسية، ويسهم المؤلفون بفعل ذلك. لكن الشباب يرون الحاجة إلى الدراسة حتى

يتمكنوا من العمل ليقوموا بإعالة عائلة. إنهم يريدون أن يدخلوا بنسيج المجتمع، ويريدون أن يجدوا هوية جديرة وذات مغزى، وأن يكونوا آباء وكاسبين للقوت شيء جيد يرغبون بالكفاح من أجله. وفوق كل ذلك، يريدون الارتباط بشريكاتهم. وفي الحقيقة، يشير المؤلفون إلى هذا التفسير البديل لكنهم لا يحققون أي شيء منه. ويلاحظون أن «دليل اعتماد الشباب الكبير... على النساء للحفاظ على الحياة العائلية يقترح اعتماداً من الرجال أكبر من استقلالهم»[27]. وهم يخففون بربط هذا مع مناقشتهم لاستقلال النساء؛ وبالفعل إنهم لا يأخذون به أبعد من ذلك. وقد أعتقد بأنه كان نظرة ثاقبة. وربما كان هؤلاء المؤيدون لمساواة المرأة، وهم في بحثهم لتشجيع استقلال النساء ورفعه فوق أي من المبادئ الأخرى بما في ذلك الحياة العائلية والارتباط، يراودهم الشك المفاجئ حول ما إذا كان أولئك الذين ينافسون في هذه المهمة ـ وهم الرجال ـ هم حقاً مستقلون كما يحبون أن يظهروهم. لكن هذه الفكرة المزعجة ربما تترك إلى جانب واحد.

وهكذا فإن «جيرمين» مخطئة تماماً بما يخص هذا الموضوع. وتعتقد أن علينا «أن نتقدم بالافتراض بأن ظهور العائلات التي على رأسها أنثى وحيدة يعكس ما يريده الرجال»[28]. ليس هذا مطلقاً. فالمراهقون والشباب يريدون الاعتماد المتبادل، ويريدون أن يتمكنوا من إعالة زوجاتهم وأطفالهم. والمربون المؤيدون لمساواة المرأة هم من يسعون إلى سحق هذا الموقف المتقهقر. لنقم الآن بمزيد من استكشاف هذا الارتباط والاعتماد المتبادل، لأنه قد يبدو الأمر حاسماً لجميع المناقشات المثارة هنا. ماذا يقال عن هذا الإحساس الرومانسي ـ بحسب المربين المؤيدين لمساواة المرأة ـ الذي يدع الشباب خارج، «التزامن» مع الشابات؟[29].

مع ظهور (المرحلة الثانية) كانت «بيتي فريدان» ترى بالتأكيد ناحية الاعتماد المتبادل بصورة أكثر وضوحاً. وبعيداً عن سعي المؤيدين لمساواة المرأة لفصل العلاقات بين الرجل والمرأة، إنها تحاول الآن إدراك وجود شيء ما أكثر عمقاً يربطهما معاً. فتصف بعض النساء اللواتي قابلتهن في مجموعات للتوعية. وكانت

«آنجيلا» واحدة منهن، «و هي امرأة جميلة حقاً، مزيج من «كانديس بيرغن» و«فرح فاوسيت»». ونقل عنها قولها: «يثير جنوني أنني معتمدة بشكل كامل على رجل». ولكنها بعد ذلك تدرك أن هذا القول المكرر لا يعبر عن حقيقة ما يجري في حياتها: «لقد جعلت الرجل معتمداً علي تماماً مرتين، وعندما سحبت ذلك، انهار الرجل. ولا تعرف أي منهما يرفع الآخر». لم لا نقبل بأن كلاً من الطرفين يرفع الآخر؟ وتصف فريدان كيف قال الرجال ذلك لها: «هكذا يفترض أنه هو الذكر المضطهد الكبير، صحيح؟ كيف يمكن له أن يعترف بالسر الكبير ـ بأنه يحتاج إليها أكثر مما تحتاج إليه؟ وبأنه يشعر كأنه طفل عندما يخشى أن تتركه؟» إنها تدرك الآن أن العلاقات كلها حول الاعتماد المتبادل بين الرجال والنساء. وضمن هذه العلاقات تكون قوة المرأة حقيقية.

وتقول «فريدان» بالنسبة للمرأة «إن صفاتها الجنسية وأمومتها لا تزالان قوة مخيفة حقاً، وما من رجل أو امرأة ممن ترعرعوا في أسرة وعانوا أو تشوقوا أو استمتعوا بلمسة الآخر يستطيع أن ينكر ذلك». فللنساء «سلاح رهيب على الرجل لكونهن أولاً أمهات ثم زوجات: على إعطاء لمسة الحنان تلك أو حجبها؛ وتغذية تلك الحاجة الماسة للحب فيهم عن طريق إنكارها وهذه السلطة على الرجال ما قادت الرجال إلى «أعمال السلطة ولقسوة والانتصار». وتتابع قولها:

> إن أهمية الأطفال والعائلة والبيت الثابتة في وعينا اليوم لا تقوم على مجرد حاجات الرجال والأطفال للتغذية والرعاية المحبة والمجاملة وقدرات النساء الأنثوية ـ لكنها أيضاً تقوم على حاجات النساء، وهي حاجات متساوية وأساسية بالنسبة لشرط الإنسانية، للسيادة والسلطة وتأكيد الوجود والأمن والسيطرة.

يجدر بالفعل أن نؤكد على أن فريدان ترى أن العائلة يمكن أن تكون المكان الذي يجمع بصورة رائعة مجموعتي حاجات النساء كلتيهما ـ فالمرأة تستطيع أن تكون قوية ومربية في الوقت ذاته. وتقول أيضاً إن للنساء «حاجة للقوة و الهوية والمركز والأمن»، كما أن لهن «حاجة للحب والهوية والمركز والأمن والتوالد من

خلال الزواج والأطفال والعائلة... إن مجموعتي الحاجات أساسية للنساء». لكنها تقول لنا يمكن تلبية مجموعة الحاجات الأولى في العائلة والبيت (شريطة أن يكون الرجال ممن جديرون بالثقة، وسنأتي على هذه النقطة بعد قليل) وفضلاً عن ذلك فإن خبرة معظم النساء (ليس كلهن) في تلبية هذه الحاجات في المجال العام للعمل تؤدي إلى التعاسة وخيبة الأمل.

لكن هناك ناحية أخرى للاعتماد المتبادل هذا ـ على الأقل من حيث الإمكانية ـ لا يرغب المربون المؤيدون لمساواة المرأة بمواجهتها، والتي للمرة الثانية تدركها بيتي فريدان. فتصفها على هذا الشكل:

أفكر في نساء من بنات جيلي ومعارفي اللواتي أمضين ثلاثين سنة أو أكثر متزوجات من رجال أعمال ومحامين وأطباء وفنانين وهن الآن ناجحات. وجميعهن بدأن فقيرات ومكافحات. فكانت اللوح المردد لكل كلمة كتبها، ومسكت دفاتر الحسابات، وجاءت بالكتب من المكتبة، وحجزت بطاقات الطائرة بالإضافة إلى الطبخ المعتاد والأطفال والتزيين وهي تستمتع بأن الجميع يعترفون بأنها جزء من نجاحه. أو قامت بتصنيف الصور وتابعت المدفوعات. أو أصبحت في النهاية بوصفها زوجة طبيب المرضة والسكرتيرة وعاملة الاستقبال. ليس لديها حياة خاصة بها ـ «إنه يتابعني حتى إلى الحمام حتى أقرأ له آخر صفحة بصوت عال». وأصبح بعضنا كاتبات وفنانات ومحاميات مستقلات... لا نمزح عندما نتخيل كم يكون وضعنا أفضل لو استطعنا بناء أنفسنا «مع زوجة كهذه».

إنها تمزح فقط، ولا تشجب هذه الترتيبات مطلقاً. وتقول:

بقدر ما أستطيع أن أرى، يبدو أن كثيراً من زيجاتهن ناجحات. لا بد من وجود مبادلات. هل يفلح س كفنان، أو ع كطبيب لولا الإسهام الدائم من زوجته؟ وما العيب في ذلك ـ إذا كان الأمر ناجحاً ولم يتوقف أي منهما أو لم يخاطر كثيراً؟ واعتدنا أن نضحك حينما تقول «لقد كتبنا اليوم خمس صفحات»، لأننا في الواقع كنا نعرف أنه هو الذي كتب تلك الصفحات[30].

هذه الناحية من الاعتماد المتبادل ستكون لعنة كاملة بالنسبة إلى المربين المؤيدين لمساواة المرأة اليوم، حيث تتخلى المرأة ـ وهي ربما تدرك أن كل ما قيل عن مصادر قوتها وإنجازها ـ عن العمل، لكنها لا تزال تشعر أنها تعيش من خلال عمل ـ وإن أرادت، تحصل على كل ما تحتاجه من العالم الخارجي بالوكالة ـ زوجها. والمثال عن الاعتماد المتبادل هذا والذي صادفته مؤخراً جدير باستكشافه كمثال عن هذا، لرؤية أين يمكن أن يعترض عليه المؤيدون لمساواة المرأة بالضبط.

تصف «روز فريدمان» حياتها في مذكراتها الرائعة (شخصان محظوظان) التي كتبتها مع زوجها «ميلتون»[31]. يبدو أنها كانت صورة مصغرة عن كل شيء كان خطأ مع الجيل السابق والسبب الذي احتاجه المؤيدون لمساواة المرأة بصورة شديدة لتغيير كل ذلك. حياتها مليئة بالأوهام الرومانسية والكره الشديد للاستقلال الذي يعتقد مؤيدو مساواة المرأة أنه حق كل امرأة أن تتحمله. ولنتصفحها لنرى أين أخطأت وكيف كان يمكن إصلاح حياتها.

على الرغم من كونها ذكية بصورة لا تصدق، وبالتأكيد كانت ذكية بقدر ذكاء زوجها القادم، ومع مرور الزمن أصبحت «روز فريدمان» أقل اهتماماً بعملها وزاد اهتمامها بزوجها. وعندما تزوجت تركت عملها كما كان متوقعاً، وركزت وقتها بصورة كاملة على الأمومة عندما وصلتها بصورة سريعة. وتوضح بصورة مفيدة، كما كان الأمر بالنسبة «لكارولين غراغليا» وفي الجيل نفسه، لم يكن التمييز الجنسي المفروض هو الذي أوقف حصولها على عمل؛ فقد خرج أساتذتها الذكور عن طريقتهم وعرضوا عليها العمل الذي رفضته بأدب. فكان هناك شيء أكثر أهمية لتقوم به.

ثم ربت الأطفال بضع سنين بتفرغ كامل، قبل العودة إلى العمل، ولم تساو الشهرة أو النجاح الذي حققه زوجها «ميلتون»، وهذا لا يدهش إذا أخذنا بالاعتبار وقت الالتزام الذي كرسه، باستثناء ظروف المسلسل التلفزيوني الناجح جداً «حر ليختار». وحتى في ذلك الحين قد يتذكر كثير من الناس أن المسلسل

بظروف «ميلتون» أكثر من ظروف «روز». ولكن عند سؤالها عن رأيها بنجاح زوجها، وإن كانت تشعر بالمرارة أم لا، تقول إن نجاح زوجها كان نجاحها ولم تشعر بالغيرة من ذلك. وبالفعل، عند قراءة الفصل الذي يصف «ميلتون» وهو يفوز بجائزة نوبل، حيث استقبله الطرفان بالسرور ويتذكران ما حدث، ومن الواضح أن كلاً منهما شعر أن ذلك الإنجاز هو إنجاز عائلة «فريدمان»، فقد تقاسماه وتمتعا به بصورة متساوية. وإذا أحببت كان «ميلتون» الرئيس الفخري لذلك، لكنها تقاسه جائزة نوبل بصورة متساوية. وكانت هي المديرة التنفيذية لشركة فريدمان، وكان هو الرئيس.

أي هدر للحياة! وأي استبداد فظيع! هذا ما تقصده مؤيدات مساواة المرأة ويؤكدن استقلالهن بكل فخر، ويريدن أن تشاركهن جميع فتيات المدارس وجميع الشابات. ولكن لنسأل سؤالين اثنين حول «روز و ميلتون فريدمان» في تحدينا لهذا المنظور: هل كان لحياة «روز» أن تكون أفضل أو أسعد أو محققة بصورة أفضل لو أنها تابعت طريق مهنتها بصورة أكمل من حياة زوجها؟ وهل كان ممكناً لحياة عائلتهما أن تكون أفضل؟

عن السؤال الأول، يصعب أن نتخيل حياة أفضل وأسعد ومحققة أفضل من الحياة التي عرضتها «روز». وبكل تأكيد لقد وصفت حياتها بعبارات متوهجة. وهي بكل تأكيد تعتبر نفسها بصورة متساوية شخصاً من «شخصين محظوظين». ولكن لنفرض أن روز تابعت عملها بقوة وأعطته كل قلبها كما فعل زوجها. هل كان ذلك سيجعل حياتها أفضل وأكثر إنجازاً؟ هذا ما قد يقوله مؤيدو مساواة المرأة لنا. ولكن من الصعب القول بأنها قد تكون كذلك بشكل مؤكد (وروز نفسها بصراحة لا تعتقد بأن حياتها يمكن أن تكون أفضل). وبداية، لو أنها تابعت عملها وأعطته قلبها كله لكان من الممكن ألا يقدر ميلتون على تحقيق ذاته بصورة كاملة، لأنه كان عليه أن ينجز حصته المتساوية في رعاية الأطفال، ولما يتوفر له دعمها المنزلي كاملاً. وربما لم يكن الاقتصادي والمحلل السياسي العظيم. وربما لم يكن

ليفوز بجائزة نوبل. وربما لم تكن العائلة لتصبح مشهورة وذات تأثير كبير الآن، ولكن لتكون مجرد عائلة طبيعية من الطبقة الوسطى وذات طموح معقول، وكل من الوالدين جيد في عمله، وليس أي منهما استثنائياً. وربما شعرت أن حياتها أقل إنجازاً لأن زوجها لم يفز بجائزة نوبل، وربما سبب هذا لها شعوراً ناقصاً بالرضا، حتى وإن حصلت على مزيد من الرضا من مهنتها، كما نفترض. وربما وجدت في علاقتها ـ ولنشرحها كما فعلت «غراغليا» ـ الجنسية رضا أقل لو لم يكن قوياً جداً في مجاله.

ولكن المؤيدين لمساواة المرأة قد يناقشون بأنها نفسها يمكن أن تفوز بجائزة نوبل، أو تحصل على أي تقدير أكاديمي آخر أ أية انتصارات مهنية يمكن أنها كانت تريدها. وعندئذ يكون كل شيء على ما يرام. قد يكون ذلك ممكناً. سنناقش النتيجة وتأثيرها في «ميلتون» بعد لحظة. ولكن هل يمكن أن تكون «روز» أسعد حال لو اتخذت هذا الطريق؟ كلا، بعبارات «روز فريدمان» الحقيقية، أكثر مما لو أعاد مؤيدو مساواة المرأة بناءها وتركيبها. لم تكن تطمح لهذه الأشياء. أرادت هذه الأشياء في زوجها. وكما توضح قصتها، كانت طموحة لتحقيق عائلة وحياة عائلية مستقرة. طبعاً، كان من الممكن جعلها طموحة ظاهرياً مثل كثير من الشابات الآن. ولكنها عندئذ ستشبه الأخوات الشابات اللواتي واجهناهن في الفصل 1، كلهن طموحات ظاهرياً، لكن كثيرات منهن يعترفن ـ لو ضيق عليهن ـ بأنهن سيسقطن ذلك الطموح ويفضلن العائلة لو أنهن وجدن الرجل الذي يؤسسن عائلة معه.

ولكن هل نحن نسأل الأسئلة الخاطئة هنا وقد أعمانا وعينا الخاطئ؟ ألا يمكن أن «روز» قد حصلت على كل شيء ونتيجة لذلك لم يكن هناك أية تضحية بجائزة نوبل؟ ممكن؛ لكن هناك بضعة عوامل تقلل من قيمة هذه الإمكانية. وهنا ننتقل إلى السؤال الثاني: التأثير في الزوج «ميلتون» وعائلتها.

أعتقد أن بعض المؤيدين لمساواة المرأة الحاليين سيعترضون على هذا النسق من المحاكمة والتفكير. ولكن دعونا نسقط الفرض الذي يطغى على أدب مؤيدي مساواة المرأة بأن ما يشعر الرجل أنه غير مهم، ومشكوك فيه بالمقارنة مع ما تشعر به المرأة. لو كانت «روز» امرأة طموحة في مهنتها، ما كان «ميلتون» لينجذب إليها بالمقام الأول. وربما، كما حدث في قصص النساء المذكورة في الفصل 1، لو كان شخص آخر في مكانه لكان قد سئم من تقديم التضحيات لتحسين مهنتها، ولبحث عن زوجة تسانده في طموحه، وبذلك لم يكن الأمر كله ليبدأ أصلاً. ولكن دعونا ننقلهم إلى مناخ ومبادئ الوقت الحاضر، حيث لا يستطيع الرجل أن يتوقع كحق له زوجة تكرس وقتها كله. كيف كان يمكن أن ينجح مع «روز» رقم 2، المرأة المهنية العصرية؟

أي رجل في مكانه قد يحقد لأن الساعات الطويلة المكرسة للأولاد أو الشؤون المنزلية كانت تمنعه من الحصول على جائزة نوبل التي يشعر أنه يستحقها أو يستطيع الفوز بها بقليل من العمل الإضافي. وإما إنه قد يقلق أكثر على الأطفال إذا عرف أنهم في رعاية شخص لا يثق به بدلاً من زوجته التي يثق بها. وإما إنه لا يرتاح نفسياً بنجاح زوجته ويتزايد حقده عليها من دون أن يعرف سبباً لذلك،و يشعر بأن شيئاً ما غير صحيح ولكنه لا يستطيع التعبير عن ذلك لها أو حتى لنفسه. وربما شعر شخص ما في مكانه كما افترض بعض منا أن رئيس الوزراء «طوني بلير» شعر، عندما رأينا صوره مع زوجته ومولودهما الجديد، وبعد ذلك سمعنا أن «شيري بلاير/بوث» قد عادت إلى عملها مباشرة بعدما وضعت وليدها «ليو». حتى وإن تدربنا على قواعد مجتمعنا بألا نفكر بهذه الأشياء، فإن بعضنا نظر إلى «طوني بلير» وتخيله يفكر كما يلي: ألست رجلاً يكفيك؟ ألست أستطيع أن أقدم لك كل شيء؟ ألا يكفي المال الذي أكسبه لإعالتك وإعالة عائلتي؟ التفكير بهذه الأفكار ومحاربتها. (ربما انعكست كلها عليها فيما بعد؟ ألست الشخص الوحيد الذي أحجم عندما ظهر رئيس وزرائنا الجديد على درجات البناء 10 في شارع داوننغ مع عائلته في صباح الثامن من حزيران سنة 2001، وجرى إظهار

الوليد «ليو» لأبيه حتى يحضنه أمام الكاميرات، أول ظهور عام له؟ أمسك الوالد ابنه بصورة جيدة جداً؛ وأمه أرادت بشكل واضح أن تكون ضمن الصورة، ولكن بدا كأن «طوني» يدير ظهره لها، ويبعدها إلى طرف الصورة. فبدت صغيرة بصورة لا تصدق وتلاشت. وهنا كان رئيس الوزارة، يقوم بكل هذا. أب وعلاوة على ذلك أب الأمة، والأم ـ حسناً لقد زيفت دورها «فألقت» ابنها لتعود إلى عملها بسرعة كبيرة، وبقيت من دون دور متميز أكثر خصوصية من أمهم.)

لو كانت «روز» امرأة مهنية كتلك، فإن زوجها، مثل العديد من الرجال، قد يكون شعر بأنها لم تعد فريدة، وأنها، بعبارة «غراغليا» الرائعة، يمكن استبدالها بسهولة كبيرة. ومثل هذا الرجل يمكن أن يلتفت إلى علاقة زوجية إضافية. وربما تركها. وربما تركته والتفت إليها آخرون بالعمل ـ ربما أولئك الذين كانوا ناجحين وقساة أكثر من الرجل الغريب الذي حول زواجها زوجها إليه.

ربما لم يكن هناك أي شيء خطأ بالطريقة التي اختارها «ميلتون وروز فريدمان» ليعيشا حياتهما، وهي الطريقة المعتادة لكل جنس. وربما لا يكون هناك أي شيء خاطىء في المجتمع إن كان الناس لا يزالون يختارون أن يعيشوا حياتهم بهذه الطريقة. وقد يبدو أن المربين المؤيدين لمساواة المرأة لا يظنون ذلك. إنهم يريدون من النساء أن يتحررن إلى الاستقلال عن زملائهن الرجال. إنهم يحتفلون بالاستقلال ويبعدون أي شيء آخر كرومانسية مهدئة. وآراؤهم هي التي تمسك بالتأرجح في المشهد التربوي اليوم.

طبعاً إن هذا لا يعني القول إن على الجميع أن يعيشوا حياتهم بهذه الطريقة. إنني واحد ممن كانوا يصيبهم القلق لو أن مارغريت تاتشر لم تقم بخطوتها الكبيرة غير التقليدية تاركة وراءها أطفالها ـ وربما تركتهم بجروح لا تشفى ـ وبجميع الأوصاف، تذهل زوجها الذي يعاني زمناً طويلاً ولكنه يكرس نفسه. إن بريطانيا والعالم يحتاجون إلى آرائها القوية وإلى طرقها التي لا تقبل المساومة؛ وبرأيي، كان من الممكن أن يكون العالم مكاناً أسوأ قطعاً لو أنها بقيت

في البيت تقوم بدور الأم. عندما تنقلت في دول العالم الشيوعي السابق، قابلت أشخاصاً عديدين يوافقون على ذلك. فبالنسبة لهم كانت السيدة «تاتشر» تلخص روح العصر. ويقرون بالثلاثي التحريري «غورباتشوف وريغان وتاتشر». ولنذكر مثالاً ثانياً من بين أمثلة كثيرة، فكان لون السياسة البريطانية ليتضاءل بصورة شديدة لو أن «بيتي بوثروبد» لم تترأس مجلس العموم ما يقرب من عشر سنوات، ولو أنها تزوجت بهدوء وقامت بتربية الأطفال ولم تأت بقوتها الهادئة وباستقامتها إلى البرلمان. ولكن الاستثناءات موجودة دائماً. إن المجتمع الذي يسمح بالاستثناءات كلها لا يصر على أن يكون الجميع استثناءاً قد يبدو أنه مجتمع جيد بصورة محتملة.

الآن يمكن القول إن «روز و ميلتون» أنفسهم أشخاص استثنائيون، ولا يمكنني أن استخدمهم كمثال لأن ذلك يتطلب السؤال: ماذا يقال عن الناس الأقل نجاحاً؟ لا يمكن لكل «روز» أن تفخر بإنجاز زوجها في الحصول على جائزة نوبل، ولذا ربما يكون هنا حيث تسقط هذه المقولة. وفيما بعد سنرى كيف تتجه النساء لاختيار شركائهن الذين يستطعن التطلع إليهم ـ على سبيل المثال، الرجل أكبر سناً وذو مقدرة مساوية أو أقل، لكن لديه وقت أطول لتحقيق إنجاز، ويناسب القائمة بشكل جميل. وهذا سيقود المرأة التي لا يستطيع أن يطمح ليكون فائزاً بجائزة نوبل ومع ذلك ينتصر في تحقيق حصوله على كرسي في أحد الأقسام أو في مشاركة بالممارسة أو في الترقية التالية أو ببساطة في وظيفة مستقرة.

وهكذا نعود إلى دور الرومانسية في الموضوع كله. والمربون المؤيدون لمساواة المرأة لا يعجبهم أن تشارك بناتهم في هذه الرومانسية ـ ويسمونها «جعل الشيء رومانسياً»، وهي عبارة مزدرية تظهر الأمر يرشح وعياً كاذباً. بعد قراءة تقارير المؤيدين لمساواة المرأة عن فتيات الطبقة العاملة وهن يجعلن علاقاتهن والمتاعب المنزلية رومانسية وذلك في الأيام الماضية السيئة من أعوام السبعينيات، تذكرت خبراتي الخاصة من هذا النوع. أعتقد أن المرأة الوحيدة من قبل حركة مساواة

المرأة خرجت معها كانت لا تزال متعلقة بعملية جعل كل شيء رومانسياً، وكانت أول صديقة لي. وعدت إلى سنة 1974 أو 1975؛ كان عمرها 15 أو 16 فقط، وهي أكبر مني ببضعة أشهر. جئت لأزورها على دراجتي وكان الطقس قاسياً. وربما لم أكن أريد الذهاب فكانت أمسية شتوية باردة وماطرة. ووصلت لأرى أنها كانت تعد لي الكعكة. وكان الحوض مليئاً بالأطباق المتسخة. عندما جلست أرشف الشاي الساخن معها في المطبخ، نستدفيء بالموقد، واعتذرت لها لأنني سببت لها كل هذا الإزعاج. فقالت لا تعتذر، فذلك رومانسي جداً. رأيت ذلك إنه عبء منزلي أرهقت نفسها من أجلي في المطبخ ولا يزال أمامها كل الأطباق لتنظفها، المؤيد الأولي للحركة النسائية يتكون. لقد صبغت الأمر بالرومانسية والمغزى والأهمية. وكان الشيء الغريب، أنه على الرغم من انزعاجي من البرد والمطر، وعلى الرغم من أني لم أكن أرغب بالمجيء، فانسحبت من كتبي ومن دفء غرفتي ولأنها رأت ذلك رومانسياً، جعلتني أشعر بالدفء مباشرة. بهذه الحادثة بدأت أعرفها «كآخر» غامض، أجل، لقد كانت «كاري باشتر» على حق. ولكن «الآخر» في اكتشاف الرومانسية في الأعمال المنزلية التي أدفأتني. ولأنها صبغت المهمات المنزلية البسيطة بالرومانسية، جعلتني أشعر بالسعادة وأنا بدوري جعلتها سعيدة أيضاً لفترة قصيرة على الأقل.

هذه هي الرومانسية التي يحرفها المربون المؤيدون لمساواة المرأة. إنهم يعتقدون أن شابات وشباب الطبقة العاملة في الماضي قد تم تضليلهم تماماً. إنهم يريدون الحياة من دون التركيب الاجتماعي للجنس، لاستبداله بشيء آخر. وليس من الواضح إن كانوا يفكرون بخطوط صحيحة.

ولكن بالعودة إلى «ميلتون وروز فريدمان»، يوجد شيء لامسه المربون المؤيدون لمساواة المرأة وهو ما قد يجعل «روز فريدمان» تعيسة. أي إن النقطة لم يعد الرجال لا يعتمد عليهم، والموضحة من قبل مؤيدي مساواة المرأة بشروط البنات المرتبكات برومانسية الزواج في الستينيات، وكانت موضحة بقوة في المشكلات

ترى «بريدجيت جونز» في عدم موثوقية الرجال، متزوجين وغير متزوجين. لو كانت «روز» رئيسة تنفيذية متفرغة بالكامل في شركة فريدمان، وكان «ميلتون» لا يعتمد عليه بدوره، وإذا ذهب هذا الرجل مع سكرتيرته الشابة وطلق زوجته، يمكن أن يجعل الحالة كله لا يمكن حمايته تماماً. وهذا النوع من عدم الموثوقية هو ربما يريد مؤيدو مساواة المرأة حماية المرأة منه. ولكن عندئذ يثار السؤال: كيف تجعل الرجال موثوقين أو يعتمد عليهم بتلك الطريقة؟ والقلق هو أنك لا تفعل ذلك من خلال أنواع إصلاحات الجنس التي يصفق لها المربون المؤيدون لمساواة المرأة اليوم في المدارس .

يقترح «روجر سكروتون» أن أزمة الموثوقية الذكرية هذه «تتدفق مباشرة من انهيار دورهم الاجتماعية القديمة كحماة وموردين». يوضح أن «الزواج كان ذات مرة آمناً؛ وقدم للمرأة وضعاً اجتماعياً وحماية، بعدما توقفت عن كونها جذابة جنسياً زمناً طويلاً. وقدم مجالاً حيث كانت هي المسيطرة». ولكن دعنا نوضح تماماً أن الشيء الذي يجعله ذا قيمة لها كان تضحية له؛ ولكن كان ذلك بحد ذاته محتملاً بواسطة «احتكار الذكر للمجال العام حيث تنافس الرجال من أجل المال والمكافآت الاجتماعية». لقد ضحى الجنسان كلاهما من أجل الخير الاجتماعي لاستقرار العائلات: «احترم الجنسان حدود بعضهما بعضا واعترفا بأنه يجب على كل منهما أن يتخلى عن شيء ما لمصلحتهما المتبادلة».لكن الثورة الجنسية غيرت كل ذلك. فقد جعل الرجال رغباتهم قانونية بممارسة الجنس مع أكبر عدد ممكن من النساء. فلا يوجد رادع اجتماعي للرجال ليكونوا متزوجين بامرأة واحدة بصورة متسلسلة، ويحتكرون امرأة خلال سنوات خصوبتها ويتخلون عنها من أجل النموذج القادم؛ وكل هذا يعني أن «ليس أمام النساء حدود آمنة خاصة بها. يقع جزء من عدم الأمن في الترتيبات التي يشجعها مؤيدو مساواة المرأة كي ليكملوا تشويههم للحياة العائلية: تقول «غراغليا»،

إن مؤيدي مساواة المرأة، يتهمون الآن قوانين الطلاق من دون أخطاء لأنها تسبب عدم أمن النساء في الزواج، واضعين خطر الطلاق كسبب يجب على النساء أن يتخلين عن دورهن التقليدي لصالح متابعة المهنة. ولكن نفاذ هذه القوانين ذاتها هو الأداة الأكثر أهمية استخدمتها حركة النساء لتدمير حيوية دور المرأة التقليدي في تفتيت الدعم المؤسسي الذي عزل النساء عن مخاطر اعتمادهم الاقتصادي في الزواج[33].

تقول «ميلاني فيليبس»، «إن الطلاق من دون خطأ يحقر الزواج بصورة ناشطة.... إذا كان الالتزام بالزواج يمكن أن يمزق من دون سبب، يصبح معناه أقل من عقد لشراء سيارة مستعملة»[34]. وفيه يقع طريق عدم الأمن الحالي لدور النساء المتزوجات. وربما كانت المشكلة التي ترتكز عليها الترتيبات التقليدية سببتها ثورة مساواة المرأة التي أطلقت العنان للرجال بجنس خال من المسؤولية وبالزواج المتسلسل من امرأة واحدة، وأوجدت الطلاق من دون أخطاء لاستكمال تحريرهم من الاعتماد المتبادل. فإذا كان كل هذا صحيحاً، فإنك لن تستطيع أن تجعل المرأة أكثر أمناً عن طريق تشجيع اعتمادهن المتبادل بواسطة المدارس.

يبدو أن المربين المؤيدين لمساواة المرأة يقصرون في تغيير البنات هنا. فاحتفالهن باستقلالهن عن الرجال، وازدرائهن لرومانسية الرجال لأدوار الجنس كعودة إلى شيء كانت النساء قد تخلت عنه، ربما كان المربون أنفسهم يعملون على خلق الظلم للنساء، الظلم الذي ينجم عن حرمان النساء من رجال محل ثقة يعتمدن عليهم.

المرأة «القلقة والباحثة عن الكمال»

يبدو أن ما تريده نساء كثيرات مفضلاً في حياتهن ـ الأطفال والعائلة والأزواج الملتزمون والمخلصون ـ هو النقيض المباشر لما تقول الأنظمة التعليمية اليوم أنه ينبغي أن يكون مصدر إنجازاتهن. في أمريكا وبريطانيا وأستراليا إن النظام التربوي معد ليقول يجب على النساء وكذلك الرجال أن يحققوا إنجازاتهم

ورضاهم في مكان العمل. فإن كان المرء يكافح من أجل النجوم أو أن يكون نجماً فقط ـ في العلم و الأعمال والسياسة والرياضة ـ وأن الحلم الأمريكي وأحلام جميع الدول التي تقلده قد تتحقق. وإذا بحثت النساء عن إنجازاتهن ورضاهن في مكان آخر، لاسيما في تفضيل تربية الأطفال، فإنهن لا يستطعن أن يتوقعن أن النظام التعليمي سيقدم لهن أي عزاء أو دعم في بحثهن.

إن تأثير حركة المؤيدين لمساواة المرأة «الحديثة»، «دو بوفوار وبيتي فريدان» بصورة خاصة، يرى بوضوح في هذا الطموح، وفي السياسات التي تؤلف المشهد التربوي. فانحدار الحياة العائلية، والقيمة العالية المعطاة لعالم العمل، والتأكيد على استقلال المرأة عن الرجل، جميعها مواضيع يجري بحثها بوضوح في (الجنس الآخر) و (الفكر الأنثوي). ولكن عندما ينظر المرء إلى هذه المواضيع عن كثب، أو إلى كيف طور المؤلفون آراءهم، فإن المرء يرى أن المشكلات ليست واضحة تماماً كم جرى تقديها من خلال المربين المؤيدين لمساواة المرأة.

انتقلت بيتي فريدمان من أفكارها في كتاب (المرحلة الثانية)، واعترفت أن المرأة تحتاج إلى العائلة، فعلاً، وأنها تستطيع أن تجد تحقق حاجتها للقوة والأمن في العائلة. كانت «دو بوفوار» موزعة بين تشويه الحياة العائلية ـ وهنا تبدو أنها مضطرة لفعل هذا، ربما بنية سيئة ـ وبين الابتهاج بها. ويرتفع العديد من الأصوات النسائية الآن في نفس الاتجاه، وتناقش افتراضات المربين المؤيدين لمساواة المرأة التي وجدت طريقها إلى السياسة. وتعبر بصورة خاصة كل من «كارولين غراغليا» في كتابها (السكون العائلي) و «دانييل غريتندن» في كتابها (ما لم تخبرنا به أمهاتنا) عن خطة بديلة للجنس تمدح الدور العائلي للنساء، وتحقق في الفكر «المذكر» الذي يقول إن العمل وحده هو الجيد، لاسيما للنساء، والذي يوضح أن الاعتماد المتبادل بين الرجال والنساء هو مصدر الإنجاز والسعادة، خاصة للنساء، أكثر من الفردية الشديدة عند المربين المؤيدين لمساواة المرأة. ويبدو أن كتاب «جيرمين غرير» (المرأة الكاملة) يناسب هذا

الاتجاه بإنصاف أيضاً. وتتساءل الأصوات النسائية البديلة المرتفعة من هن «القلقات» و«الباحثات»[35]، وعما إذا لم يكن من الأفضل تكوين مجتمع تكون فيه النساء سعيدات ومحققات لذاتهن.

وبعبارة أخرى، اقترح هذا الفصل والفصل السابق بأن المشهد التربوي الحالي يتوافق مع خطة مساواة المرأة، إن لم يكن من وحيها، لا يؤدي إلى سعادة النساء. فجزء منه يؤدي إلى قلق «بريدجيت جونز». وجزء منه يخلق البحث عند النساء اللواتي يشعرن أنهن يجب ألا ينجزن في زيجاتهن وعائلاتهن، حتى وإن أنجزن، أنه يجب عليهن أن ينظرن خارجاً إلى عالم العمل من أجل سعادتهن، حتى وإن كن متأكدات من أنهن لأن يجدنها هناك.

لا شك أن هناك قراءً يفكرون، وهم ينفجرون من نفاد الصبر من هذه النقطة، (وربما يخطون ملاحظاتهم الغاضبة على الهوامش): إذا كانت الحياة العائلية جيدة بهذا الشكل، لم لا تقومين بها، اليوم! وإذا كانت هذا المصدر للإنجاز وللسعادة، نفذيها أنت، ودعينا نحن النساء نستعيد مكان العمل لأنفسنا! إنني لست متأكدة من أنني سأحب الحياة العائلية بقدر حب النساء اللواتي اقتبست أقوالهن، دون ذكر إن كنت سأفلح فيها. وهذا بالطبع يعود بنا إلى مناقشة إن كانت بشكل عام تحقق الإنجاز للرجال بصورة متساوية كما تحققه للنساء. لا شك أن هناك فروقاً جنسية في طريقة استجابة الرجال والنساء للحياة العائلية ـ على سبيل المثال، يعبر البحث المقتبس في الفصل 1 الذي يشير إلى تعاسة النساء المتزايدة في أمريكا وبريطانيا تعبيراً أنيقاً.

يدّعي دعاة حقوق المرأة أن تلك الاختلافات بكل بساطة هي نتائج ممارسات اجتماعية. لذلك فإنها قابلة للتغيير. يحتاج رجال مثلي إلى المزيد من إعادة تثقيف لا أقل لنتمكن من النجاح في أعمال المطبخ. نحتاج إلى إعادة تثقيف للتغلب على الرغبة في انتقاد دعاة حقوق المرأة. من جديد تثار القضية حول صحة هذه الإدعاءات وأنا أرى أن هذه القضية جديرة بالبحث وإن كان ذلك للأسباب الأكاديمية فقط.

من الممكن أن يكون هناك اختلافات لها أسس بيولوجية بين الجنسين والتي تودي إلى الطريقة التي يجد فيها الجنسان مصادر مختلفة للرضا وتحقيق الذات. من جديد فإن المناقشات في هذا الفصل والفصل السابق تشير إلى الحاجة الملحة لفهم الفروقات بين النساء والرجال بيولوجياً وثقافياً. إن التعاسة التي تشعر بها كثير من النساء بسبب إبعادهن عن المحيط الذي كان مصدر رضاهن إلى محيط آخر لا يوفر لهن ذلك الشعور بخلق الحاجة الملحة إلى اكتشاف ما يمكن تغييره في المجتمع والذي من الصعب القيام بذلك إذا كانت أسسه بيولوجية. هل كل تلك الاختلافات التي نراها هي نتائج اجتماعية وثقافية؟ أم هناك سبباً آخر؟ لا يمكن تأجيل مناقشة هذا الأمر الهام أكثر من ذلك.